توظيف الفولكلور لدعم الوحدة الوطنية عبر برامج الإذاعة السودانية

سوسن محمد طه أحمد

Abstract: This article discusses the possibility of applying folklore genres in radio programs to enhance national coherence and stability of Sudan. To achieve this goal, an intensive field collection of oral and written literature was conducted. The results of the data analysis show that, although Sudan is a multicultural country, many cultural commonalities such as Sudan Colloquial Arabic, common history, customs, belief and music can unite the people of Sudan. These commonalities are mainly embedded in folklore genres which are orally transmitted. Hence, radio media is the most appropriate means of communication that can bring people together. This article criticizes the current radio programs for its inability to exploit folklore genres adequately in enhancing national unity suggesting a radio program with a new structure and methods to rectify the present situation.

١ – مقدمة

يناقش هذا المقال إمكانية إسهام الإذاعة في دعم الوحدة الوطنية السودانية عن طريق التوظيف الأمثل لعناصر الفولكلور المختلفة. ويبدأ أولاً بتعريف عام للفولكلور وشرح كيفية إسهام عناصره في خدمة قضايا الوحدة الوطنية. ثم ينتقل إلى نقاش فكري حول جدلية العلاقة بين الموروث والوحدة الوطنية، يستعرض من خلاله عدة آراء ومفاهيم حول الوطن وكيفية وحدته. ثم يدلف لاستعراض واقع البرامج الإذاعية التي تجعل من الموروث مادة لها، ليبيِّن مواضع الضعف والقصور أحياناً. وينتهي باقتراح آراء عامة حول برنامج إذاعي نموذجي يرجى أن يكون في تنفيذه إضافة

تسهم في جعل تطبيقات الفولكلور أمراً يعين على حل بعض مشاكل السودان المزمنة والملحة.

٢- تعريف الفولكلور

يعود مصطلح فولكلور للعالم البريطاني وليم جون تومز في العام ١٨٦٤، وتعني مقاطع الكلمة وقتها معارف الناس أو الأدب الشعبي.[١] وقد تم تجاوز هذا التعريف وتوسعت مجالات الدراسة التي يشتمل عليها علم الفولكلور لتضاف العادات والتقاليد والمعارف الشعبية، ثم فنون الأداء والثقافة المادية المتمثلة في الحِرَف والمصنوعات اليدوية. ولما كانت الدراسة تختص بتوظيف العناصر الفولكلورية عبر الإذاعة السودانية، فإن الفنون القولية هي أكثر العناصر اتساقاً مع الغرض، لكونها تعتمد على حاسة السمع.

٣- جدلية العلاقة بين الموروث والوحدة الوطنية

يكتسب الموروث الشعبي خاصيته في التطور والمساهمة لحل المعضلات التي تواجه حياة الإنسان اليومية. لذلك فإن "بين الموروث الشعبي والإنسان علاقة وطيدة تماثل علاقة الدال بالمدلول، بحيث يصبح الموروث ليس مجرد جملة من العلوم والمعارف والفنون،[٢] بل سلوكاً يكتسب قيمته الحضارية بالتأثير على الإنسان باعتباره جوهر العلم والمعرفة؛ فالإنسان ليس مجرد متلقي أو مستهلك، بل متمثلاً بوعي آلياته. ولذلك تتسم العلاقة بين الإنسان والموروث بالتفاعل والتواصل والتأثير

(١) فوزي العنتيل (١٩٨٧م): الفولكلور ما هو، دار الميسرة مكتبة مدبولي، القاهرة، ص ٧.

(٢) عبد الله بن عيد العلوي (١٩٩٦م): "هاجس الوحدة في سياق التفاعل الثقافي والتواصل الحضاري"، المستقبل العربي، العدد ٢٠٦، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ص ١١٤.

المتبادل، بحيث تسهم تطبيقات الموروث في حل كثير من المشكلات، خاصة تلك التي لها علاقة بالوحدة والانسجام والتفاهم والعيش المشترك لقاطني الوطن الواحد في أمن وإخاء.

تعددت وتنوعت المفاهيم والقضايا والآراء التي تعالج موضوع الوحدة الوطنية في السودان. فقد ظلت مثل هذه الموضوعات، والتي ارتبطت بمفاهيم الهوية والبحث عن الذات،[٣] هي القضايا المحورية منذ الاستقلال وحتى اليوم. ولم يك ذلك من اهتمام الأكاديميين فحسب، إنما جذبت تلك القضايا لفيفاً من الناس ومن مختلف القطاعات، حتى صارت من الأمور التي يعيرها المواطن العادي كثيراً من انتباهه، وذلك لما تبيِّن له من ارتبطها بأمنه واستقراره ومعاشه. فما هو مفهوم الوطن الذي يسعى الكل لوحدته؟

٤- مفهوم الوطن والمواطنة

لقد ورد في لسان العرب: الوطن هو المنزل الذي نقيم به وهو موطن الإنسان ومحله؛ وأوطن: أقام، وواطنه: اتخذه وطناً، وأوطن: اتخذ محلاً ومسكناً يقيم فيه.[٤] وقد وردت كلمة مَواطن في القرآن الكريم لتعني مواقع الحرب. قال تعالى: (لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ) (التوبة ٥٢). الأصل أن لا يتعدى استخدام الكلمة مكان السكن، وإن كان يمكنه أن يشتمل على البلد الذي ينتمي إليه الفرد.

(٣) انظر: أحمد عبد الرحيم نصر (١٩٨٦): "البحث عن الذات: اتجاهان في الدراسات الفولكلورية السودانية"، المأثورات الشعبية، العدد الثاني، مركز التراث الشعبي لدول الخليج العربي، الدوحة، ص ١٩-٢٦.

(٤) انظر: ابن منظور، جمال الدين محمد بن كرم (١٩٩٠): لسان العرب، دار صادر، بيروت.

وفيما أن الإنسان كائن اجتماعي، فإن مكان سكنه يتمثل في المنزل الذي يأوي أفراد أسرته، الذي يتمدد جغرافياً ليشمل مجموعة المساكن التي تأوي أسراً ترتبط ببعضها عرقياً، فتكوِّن كياناً قبلياً. كما قد يتسع الأمر لتتعدد القبائل فتصير شعوباً وأمماً، تتوافر بينها روابط ثقافية عديدة سواءً وُجِدت تلك الشعوب في قطر واحد أم تعددت الأقطار التي يقيمون فيها؛ كالوطن العربي على سبيل المثال. فقد عمد الاستعمار إلى تقسيم الرقع الجغرافية ليكوِّن منها الكيانات السياسية التي صارت تُعرف حالياً بالدول أو الأقطار أو الأوطان. ذلك دون مراعاة لمثل هذه الروابط الثقافية والتي هي ضرورية للاحساس بالمواطنة والانتماء للوطن.

كذلك قد تتجاوز المواطنة كل هذه الحدود لتشمل العالم بأسره، ما دام جميع سكانه يتكوِّنون من أفراد ينتمون للمجتمعات الإنسانية تربط بينهم التقاليد والمبادئ والمشاعر والمصالح المشتركة.

يعني هذا أن الوطن يمكن أن يبدأ جغرافياً من المنزل الذي نسكن فيه، ويتمدد إلى أن يصل إلى الكيانات التي تضم العالم. "فالإنسان بفطرته تواقٌ للانتماء وميالٌ للاجتماع ومجبولٌ عليه، غير أن ذلك ليس ضماناً فقط لقوته وحماية كيانه وإشباع مختلف حاجاته، بل أيضاً تنميةً لمواهبه وملكاته وتحقيقاً بذاك لانسانيته وذاته".[٥]

كما يتمدد الوطن ويكبر، فإنه يمكن أن يتناقص وينكمش ويتقوقع في حدوده الدنيا، حال إحساس الإنسان بالظلم والاضطهاد وعدم المساواة. فقد ذكر سيد حامد حريز: "إن المجموعات التقليدية عندما يتهدد الخطر كيانها ووحدتها تلتف حول ذلك الكيان بصورة دفاعية تلقائية وتلتفت إلى تراثها الذي يميِّز أفرادها، وسرعان

(٥) مدثر عبد الرحيم (١٩٨٨م): "فكرة الوحدة الوطنية"، العجب أحمد الطريفي (محرر)، دراسات في الوحدة الوطنية في السودان، الخرطوم، دار جامعة الخرطوم للنشر، ص ١١.

ما تحدث تعبئةٌ تنتج عنها محاولة التصدي، بالإعداد النفسي وباسترجاع التاريخ وتذكُّر البطولات كاستنفار وطني".[٦]

ويرى فرانسس دينق في هذا السياق أن "مسألة الانتماء والهوية في السودان متجذرة في القيم التقليدية، وهي مفهوم عميق بقدر ما هو حساس ويُعبر عنه بفخر واعتزاز ويقظة عالية، لا يتم التنازل عنها إلا بإكراه"،[٧] حيث تكمن حول هذه القيم التقليدية إمكانية مناقشة جدلية العلاقة بين الموروث والوحدة الوطنية.

لهذا فإن الرؤية العريضة لمفهوم المواطنة لا تركِّز كثيراً على سيطرة لغة وطنية أو طول الاقامة في بلد معيَّن، إنما تركِّز على المشاركة الفاعلة في المجتمع من أجل المصالح المشتركة. مما يعني الاستماع إلى آراء الآخرين وتفهمها وحرية الفرد في التعبير عن رأيه وتوضيح أفكاره للآخرين.[٨]

٥- الوحدة الوطنية

إن الوحدة المرتبطة بالوطن، أي الوحدة الوطنية، من الموضوعات التي دار حولها جدلٌ كثيرٌ. فهناك من يرى فيها ضرورة ذوبان كل الكيانات واختلاطها ثقافياً على كل الصعد حتى تكون الذات الوطنية إناءً واحداً. ويرى آخرون ضرورة الاعتراف بالتعدد والتنوع، بينما يرى غيرهم أن الاعتراف بالتعدد والتنوع وحده لا يقود إلى تلك الوحدة المنشودة، إذ لابد من البحث عن العناصر المشتركة في خضم هذا

(٦) سيد حامد حريز (١٩٨٨): "التراث الشعبي والوحدة الوطنية في ظل الحكم الإقليمي"، في العجب أحمد الطريفي، مرجع سابق، ص ١٩٢.

(٧) فرانسس دينق (١٩٩٠): ديناميةالهوية أساس للتكامل الوطني في السودان، ترجمة محمد علي جادين، مركز الدراسات السودانية، الخرطوم، ص ٧.

(٨) انظر: مؤسسة فيريدريش أيبرت (٢٠١٢): الهوية والمواطنة، الخرطوم.

التعدد. سوف نقوم باستعراض وجهات النظر المختلفة هذه لنتبيَّن أي السبل أهدى إلى الصراط المستقيم.

أولاً: الوحدة والبوتقة

وردت أفكار حول البوتقة في حديث لعبد العزيز حسين قال فيه بضرورة "الانصهار بين القبائل في اكتساب القيم وأسلوب الحياة المشتركة وغيره من خلال التفاعل الثقافي".(٩) ويطرح ذات الرؤية كذلك مدثر عبد الرحيم، الذي يعتقد أن الوحدة "عملية اجتماعية تستهدف المزج والانصهار والتوحد بين الجماعات التي تتكون منها".(١٠) ترد في هذا الاتجاه التذويبي الانصهاري آراء محمد سبيلا، وإن كانت تركز على عنصر واحد من المكوِّن الثقافي دون غيره، وهو الدين كمحور للوحدة الوطنية. حيث يقول: "إن الدين هو مقوِّم أساس لتذويب الفوارق في بوتقة واحدة".(١١) ولعل ذلك يتفق أيضاً مع ما ذكره عون الشريف قاسم حين قال: "إن الدين يشكِّل الوجدان الإنساني ويشحذ قدراتنا الروحية والمعنوية وهو مقوم أساس من مقومات البناء القومي للأمم".(١٢) غير أن وحدة الدين لم تقف حائلاً دون الصراعات منذ عهد الخلافة الراشدة وحتى عصرنا هذا. والصراع الديني لم يقتصر على المسلمين، بل مارسه الأوروبيون المسيحيون طيلة ثلاثين سنة، حتى

(٩) عبد العزيز حسين صاوي (١٩٩٦م): "المسألة القومية وأزمة الوحدة الوطنية في السودان"، المستقبل العربي، العدد ٢١١، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ص ٥٨.

(١٠) مدثر عبد الرحيم، مرجع سابق.

(١١) حمد سبيلا (١٩٨٥م): "الوحدة والمغايرة"، المستقبل العربي، العدد ٧٧، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ص ١٤٧.

(١٢) عون الشريف قاسم (١٩٩٥م): "الوحدة الوطنية في السودان من منظور ثقافي ديني"، مجلة الثقافة السودانية، العدد ٢٩، الخرطوم، مصلحة الثقافة، ص ٢٨ – ٢٩.

توقيع "معاهدة وستفاليا"، حيث تم الانقلاب على حكم الكنيسة، وشاع الحكم الملكي الإقطاعي.[١٣] ولا تزال الصراعات المذهبية محتدمةً. ذلك لأن للثقافات مكوِّنات أخرى، بجانب العوامل الاقتصادية والسلطة والتملك يمكن أن تكون مدعاة للفرقة والصراع وتفكك النسيج المجتمعي.

تلك الأفكار لم تك وقفاً على الأفراد من المثقفين السودانيين فحسب، بل تبنتها بعض الأحزاب السياسية السودانية في بواكير نشأة الحركة الوطنية. فقد ورد في مذكرات محمد خير بدوي التي تضمنها كتابه قطار العمر قوله إن الأحزاب السودانية "لم يك بينها حزب واحد يضم أعضاء مؤسسين أو عاديين من الجنوب. بل ليس بين قياداتها أي عضو من أصول جنوبية".[١٤] ولعله يقصد بهذا القول الحزبين التقليديين الكبيرين، ذلك لأن الأحزاب العقائدية التي نشأت بعد ذلك قد ضمت أفراداً قياديين ينتمون إلى جنوب السودان. ويواصل الكاتب قوله: "ولكن رغم ذلك دعا الاتحاديون في دستورهم إلى ضبط الهجرة إلى السودان عبر حدوده الغربية، وإلى إلغاء قانون المناطق المقفولة من أجل توفير الأيدي العاملة التي يمكن أن تحل مكان المهاجرين القادمين من غرب أفريقيا، ومن أجل انصهار سكان السودان على اختلافهم في بوتقة الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في ظل السودان الموحد".[١٥]

وفي رأينا أن مثل هذه الأفكار تعكس فهماً خاطئاً للتركيبة السكانية الأصلية للسودان والتي يشكل القادمون من غرب أفريقيا الغالبية، وهم أس هذا التكوين الثقافي الاجتماعي السوداني. ورغم ذلك فإنهم يريدونهم فقط أيدي عاملة، ومنصهرين

(١٣) انظر: حسن طوالبة، "الفكر الغربي والصراع المذهبي"، على الشبكة العنكبوتية:
http://www.al-moharer.net/moh254/tawalbeh254c.htm

(١٤) محمد خير بدوي (٢٠٠٨): قطار العمر، بدون ناشر، الخرطوم، ص ٨٦.

(١٥) نفس المرجع، ص ٩١.

في بوتقة ثقافة ملاك الأراضي والمسيطرين على زمام الأمور في شتى مناحيها! غير أن "التاريخ البعيد والقريب قد بيّن لنا خطل هذه النظرية/الخطة، فثق أنك حيثما صوبت بصرك، فإنك لن تعثر على بوتقة"[١٦] حيث يعشعش هذا المفهوم في أذهان بعض الساسة والمتنفذين ولا وجود له في واقع الحياة مطلقاً. فالتنوع صفة الخلق التي أنشأ الله الكون على أساسها.

ومن الواضح أن الأفكار ترى في الانصهار والبوتقة والتذويب أمراً ضرورياً لتحقيق الوحدة الوطنية، والتي لم تذكر صراحة أي ثقافة أو أي مكوّن ثقافي هو المقصود لأن يتوحد حوله الوطن، لتلزم الباقين عنوة على الانصهار فيها، وإلا خرجوا من زمرة الذين ينتمون للوطن المعني. وأنهم يفسرون مفهوم الوحدة، حسب هذا المنطق، أن يتحدث كل المواطنين لغة واحدة، ويدينون بدين واحد، ويمارسون ذات العادات والتقاليد، ويرتدون ذات الأزياء ويتناولون ذات الطعام. أليس في هذا خطل بين؟

ثانياً: الوحدة والتنوع

ترى الكاتبة، كما يرى غيرها من بعض الباحثين، أن الوحدة في الوطن لا تعني بالضرورة إلغاء التنوع والتعدد العرقي واللغوي والثقافي وحتى العقدي، طالما تساوى الناس في جميع الحقوق والواجبات، وكان التثاقف بينهم أمراً متاحاً دون قهر أو استعلاء أو تجاهل. فقد قال عبد الله علي إبراهيم في هذا السياق: "إن أهدى السبل إلى السلام والنهضة الثقافية في السودان هو الإقرار بقوامين (أو أكثر) للثقافة السودانية. قد تمتزج هذه القوامات وقد تتبادل التأثير مع احتفاظ كل منها باستقلال

(١٦) الطيب حاج عطية (محرر) (٢٠٠٧م): التعددية الثقافية الحرية والمواطنة، معهد أبحاث السلام، جامعة الخرطوم، الخرطوم، ص ٧.

الدينامية من حيث المصادر والترميز والذوق".[١٧] هذا الطرح يشير إلى أن الوحدة لا تعني إلغاء الآخر والبحث عن ثقافة يجتمع حولها كل الناس عنوة أو تآمراً. فمثل هذا الصنيع لا يحض على بقاء الوطن موحداً، كما دلت التجارب على ذلك.

ولإبراز قيمة التنوع هذه، قال عبد الغفار محمد أحمد: "إن التنوع الثقافي يُعتبر من أبرز وجوه الشخصية السودانية، حيث يمنحها هذا التنوع خاصية لا تتمتع بها شخصية غيرها على مستوى القارة الأفريقية".[١٨] هذا وقد عقد أصحاب هذا الاتجاه مؤتمر "القومية السودانية في ضوء التعدد العرقي بقصد تعضيد هذا الرأي وإقناع الآخرين بأن هذا هو الصراط المستقيم. ولعل من أبرز المدافعين عن وجهة النظر هذه هو محمد عمر بشير والذي قال: "إن الاعتراف بالتنوع الثقافي في القطر ليس من شأنه أن يتعارض بأية حال مع مبادئ تحقيق الوحدة أو بناء الأمة.... والاعتراف بالتنوع الثقافي لا يعني التجزء والانفصال. فالإلمام بالطبائع المميزة لتلك الثقافات هو شرط أساس لنجاح أي إصلاح كان".[١٩] وعلى النقيض من ذلك، فإن عدم الاعتراف بالتنوع الثقافي قد أفضى في نهاية المطاف إلى انفصال الجنوب عن الشمال.

غير أن كل من أصحاب البوتقة والتعدد يرى في وجهة نظره عين الصواب، وأنها القادرة وحدها على جعل الوطن متماسكاً ومحمياً من التشظي والصراعات ومحافظاً على كيانه ووجوده. وفي سبيل ذلك بُذل الغالي والرخيص ونشبت المعارك والصراعات. ثم جنح الناس للسلم ووقعوا إتفافية أديس أبابا في العام ١٩٧٠م،

(١٧) عبد الله علي إبراهيم (١٩٨٩): "الأفروعربية أو تحالف الهاربين"، المستقبل العربي، العدد ١١٩، مركز دراسة الوحدة العربية، بيروت، ص ١١٩.

(١٨) عبد الغفار محمد أحمد (١٩٨٧): السودان والوحدة في التنوع، برلين، المكتبة العربية، ص ١٥.

(١٩) محمد عمر بشير (د. ت): التنوع والإقليمية والوحدة، ترجمة سلوى مكاوي، الخرطوم، المركز الطباعي، ص ٣٧.

والتي قال عنها منصور خالد بأنها "كانت ملحمة كبرى استغرق نظمها وقتاً طويلاً وجهداً جهيداً، فكان هدفنا يوم ذاك إعادة السلام إلى ربوع البلاد لم يكن تعزيزاً للوحدة فحسب، بل أكسب السودان قوة جديدة في القارة الإفريقية جمعاء".[٢٠]

كما أورد عبد القادر إسماعيل أن أوليفر ألبينو، من القادة الجنوبين، قد ذكر بأن هذا الاتفاق يمثل حلاً أوجده السودانيون.[٢١] غير أن ذلك الغزل قد تم نقضه وعادت البلاد مرة أخرى إلى مربع الصراعات والحروب. فقد "سمعت لكل من الفريق جوزيف لاقو، قائد حركة الأنانيا في الستينات، والفريق مالك عقار، القيادي بالحركة الشعبية، ووجدت أنه ربما كان أعظم أسبابهما لـ "التمرد" جاء من جهة هوانهم الثقافي. فالوطنية الشمالية رتبت لوطن أحادي الثقافة ضاق بجلبابه القوم وثاروا".[٢٢] ولا زالت الوطنية الشمالية تمعن السير في ذات الاتجاه، رغم ما أفضى إليه بالأمس القريب من تفتيت وتجزئة لتراب الوطن!

٦- الوحدة الوطنية والعناصر المشتركة

وبين وجهتي النظر هاتين هناك من يرى أن الوحدة الوطنية يجب أن تتوفر لها حدود دنيا من القواسم المشتركة بين كل السكان، دون أن يكون ذلك خصماً على حساب الخصوصية الثقافية لمكونات المجتمع. فيرى الحصري أن: "اللغة والتاريخ هما المقومان الأساسيان لبناء أمة وتكوين وحدة، إذ هما يؤديان إلى وحدة المشاعر

(٢٠) منصور خالد (١٩٨٥م): النفق المظلم، قصة الفساد والاستبداد، دار جامعة الخرطوم للنشر، الخرطوم، ص ٥٤٧.

(٢١) انظر: عبد القادر إسماعيل (٢٠٠١م): سنوات السلام في السودان، (د ن)، (د م)، ص ١١.

(٢٢) عبد الله علي إبراهيم (٢٠١٠م): بخت الرضا: التعليم والاستعمار، دار المصورات للنشر، الخرطوم، ص ٦٢.

والميول ووحدة الثقافة ووحدة الهدف".[٢٣] بينما يرى سيد حامد حريز في وحدة اللغة والهدف عناصر ضرورية تؤدي للوحدة الوطنية.[٢٤] ويذكر شعيب يونس، في سياق متصل، أن "اللغة هي مقوم أساس في نقل الأفكار لتوحيد المشاعر ذات الألوان الثقافية المتعددة".[٢٥] كما أن اللغة تمثل أهم العناصر في التشكيل الثقافي للمجتمع وفي تحديد هوية الفرد ومسارات تفكيره وشعوره بالانتماء إلى مجتمعه. ولذا يصبح من الضروري أن نعنى بالتخطيط لها.[٢٦] وللغة دور جوهري في قضايا الوحدة الوطنية في السودان، ذلك لأنها "أداة قوة وسلطة في شكل تفاعلها مع عوامل أخرى كونها مناط الحراك الاجتماعي".[٢٧]

ويرى علي الضو أن "اللغة هي مستودع ثقافات الشعوب. وفي بلد كالسودان متعدد اللغات، يكون من الصعوبة بمكان أن تسهم هذه اللغات مجتمعةً في تعزيز الهوية في غياب لغة للتخاطب المشترك".[٢٨] ولكنه يضيف عناصر أخرى مشتركة غير

(٢٣) إلياس السحاب (١٩٧٨م): "ساطع الحصري المفكر والداعية والنموذج"، مجلة المستقبل العربي، العدد ٧٨، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ص ٨٣ – ٨٦.

(٢٤) سيد حامد حريز، في العجب أحمد الطريفي، مرجع سابق.

(٢٥) شعيب يونس (١٩٩٥م): الدور اللغوي لإذاعة الوحدة الوطنية في تأصيل الوحدة، بحث لنيل درجة الدبلوم العالي، معهد الدراسات الأفريقية والآسيوية، جامعة الخرطوم، ص٣.

(٢٦) توفيق محمد شاهين (١٩٨٠م): علم اللغة، القاهرة، دار التضامن للطباعة، ص ١٤.

(٢٧) عشاري أحمد محمود (١٩٨٥): "جدلية الوحدة والتشتت في قضايا اللغة والوحدة الوطنية في السودان"، المجلة العربية للدراسات اللغوية، العدد الأول، الخرطوم، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ص ١١٣.

(٢٨) انظر: علي الضو (٢٠١١م): "الموروث والهوية السودانوية"، مجلة الكرامة، العدد الثالث، إتحاد الكتاب السودانيين، الخرطوم، ص ١٨٩ – ٢٠١.

اللغة، مثل النظام النغمي والتوحيد في المعتقدات. وإن كانت اللغة العربية، لظروف تاريخية وسياسة واقتصادية، تُعتبر لغة التخاطب المشترك (Lingua Franca) بين معظم الثقافات، إلا أنه لم تك هناك سياسات واضحة لاختيارها من قبل الدولة بكيفية مثلى وبرؤية واضحة للتخطيط الثقافي، لتساعد على خدمة قضايا المواطن وتسعى في حلها.

وصحيح أن اللغة العربية، ولعدة أسباب، قد وجدت الفرصة الأكبر، وصار يتحدث بها الكثير من السودانيين. فبجانب الحفاظ على اللغات المحلية وإتاحة الفرصة لها كاملة كي تعيش وتتفاعل، فإن تشجيع اللهجات المنبثقة عن اللغة العربية مثل: عربي جوبا، عربي دارفور، عربي النيل الأرزق، عربي الشايقية، عربي البجة، إلخ ... هو السبيل الأمثل لخلق أعلى درجات التواصل بين السودانيين، مع تحقيق قدر من الذاتية الثقافية. "فلابد أن نحض وسائل الإعلام المحلية، وكذا الساسة والقياديين، إن أرادوا مخاطبة سكان منطقة ما في السودان بلغة واحدة، أن يخاطبوهم بالعربية المحلية، ولا يلجأوا لاستخدام الفصيح من اللغة، ولا يسخروا من تلوُّن الألسن واختلافها بالصورة التي تجعل من هذه الألسن مادة للفكاهة والضحك".[٢٩] ذلك لأن "الاعتراف بالبشر كما هم واحترام خصائصهم الثقافية كما هي، يجعلهم أكثر رغبة في تبني النموذج الثقافي للمجموعات التي يتفاعلون معها على نحو أكثر نجاعةً من أي مسلك آخر".[٣٠] فالتثاقّف (Acculturation) بين المجموعات المتنوعة ثقافياً لا يتأتى إلا طواعية.

(٢٩) علي الضو، مرجع سابق.

(٣٠) Francis M. Deng (1973): *Dynamics of Identification*. Khartoum: Khartoum University Press, p. IX.

٧- البرامج الإذاعية السابقة عن الموروث

كانت للبرامج الإذاعية الخاصة بالموروث مسميات عديدة، أُخذ جلها من الثقافات السودانية المتنوعة. ويختلف محتوى كل برنامج حسب رغبة من قام بإعداده في عكس هذا العنصر من الموروث أو ذاك، والمنطقة الجغرافية أو الثقافية التي يرغب في تغطيتها.

تعكس محصلة العمل الميداني لحصر برامج الموروث السوداني بالإذاعة شمولها على كافة ضروبه، وإن كان ذلك بنسب متفاوتة. فالطبيعة السمعية للإذاعة، وميل معدي البرامج للتركيز على الدور الترفيهي للإذاعة، جعلت الغلبة لعنصري الأدب الشعبي وفنون الأداء، خاصة الغناء (٧٠٪) بينما كان تناول بقية العناصر من الموروث بنسب ضئيلة.

لقد اشتملت ملاحظات بعض المستمعين على ما رأوه قصوراً في أداء الإذاعة عند تناولها لأجناس الموروث السوداني، وإن كان جل النقد في هذا الصدد قد وجه لما يرونه انحيازاً من الإذاعة لثقافة جهة سودانية بعينها وإهمال ثقافات بقية المناطق الأخرى.

ويرى صلاح الدين الفاضل في هذا الجانب أن الإذاعة والعاملين فيها كانوا قوميين ويعملون لصالح الوحدة الوطنية. ولكنه يعترف في ذات الوقت بالاخفاقات ويلقي باللائمة في ذلك على السياسة قائلاً: "قاتل الله السياسة، هي السبب في الاخفاقات دي كلها. ولو الناس ما لحقت الإذاعات الإقليمية وركَّزت على أهمية رسالتها، السودان دا كلو حيتجزأ، لأنها مؤثرة شديد في الوحدة، ودا الموضوع".[٣١]

(٣١) انظر: صلاح الدين الفاضل، مقابلة، شريط رقم: دأأ/ ١٤٤٧، أرشيف الفولكلور، معهد الدراسات الأفريقية والأسيوية، جامعة الخرطوم.

وأردف قائلاً:

"لمن فتحت الإذاعة بابها للمختصين في المجال، كان دا نقطة تحول بظهور المبارك إبراهيم وعبد المجيد عابدين وعزالدين إسماعيل. وبمساعدتهم ساهموا في توجيه المتلقي للقضايا الثقافية المختلفة. ولكن لم يكن هناك تخطيط برامجي بالمعنى المعروف، وإنما كانت هناك مشاركات فردية، يعني ما نسميه جهد فردي بس كان منظم، زي الطيب محمد الطيب والبزعي وديل بحكم قدراتهم كانت حواراتهم متقدمة إلى حد ما، وأنها كانت خلاصة تجاربهم وأفكارهم الشخصية". (٣٢)

تتفق تلك الإفادة مع ما يراه محمد المهدي بشرى من أن الذين اهتموا بالموروث في تلك الفترة كانوا هواة ينقصهم الفهم العلمي. واستثنى من ذلك الطيب محمد الطيب الذي كان محتكاً بمعهد الدراسات الأفريقية والآسيوية، حيث كان يوجد سيد حامد حريز وعبد الله علي إبراهيم، ما مكَّنه من إنجاز كثير من الأعمال التراثية، وساهم في إصدار سلسلة دراسات في التراث والمحفوظات، وقدم برامج إذاعية تراثية كانت أكثر تميُّزاً، جذبت المتلقي ووجدت صدىً كبيراً في تلك الفترة، وغطت وسط السودان وأجزاء كبيرة من غربه. (٣٣)

بيد أننا نرى حتى الذين أسماهم صلاح الدين الفاضل بـ"المختصين" فإنهم ليسوا مختصين في الموروث، كما أن جلهم، إن لم يكن كلهم، منحازون لذات الثقافة

(٣٢) انظر: صلاح الدين الفاضل، نفس المرجع.

(٣٣) انظر: محمد المهدي بشرى، مقابلات، مقابلة، شريط رقم: دأأ/ ١٤٤٦، أرشيف الفولكلور، معهد الدراسات الأفريقية والآسيوية، جامعة الخرطوم.

المهيمنة على السلطة والمال والتي بدأت تتجذر في المدن. بل نادى بعضهم بعروبة السودان متجاوزاً كلية بقية القوميات وما لديها من مكوِّنات ثقافية مختلفة.[٣٤] ودفع هذا الأمر كثيراً من المثقفين إلى أن يدقوا ناقوس الخطر باكراً ويدعوا لاحترام التنوع والتعدد العرقي والثقافي في السودان حفاظاً على اللحمة الوطنية وتجنيب البلاد ويلات الصراعات الدامية، بل وحتى الانقسام والتمزق.[٣٥] وقد أسهم في هذا الصعيد الكثير من الفولكلوريين المحدثين والذين ساهموا في التطوير النوعي لبعض برامج الإذاعة السودانية من أمثال فرح عيسى محمد، وسليمان يحيي محمد، وجراهام عبد القادر، ويوسف حسن مدني، وعلي إبراهيم الضو.

وتؤكد عملية الحصر والدراسة التي قامت بها الباحثة للبرامج الإذاعية في تلك الفترة والمحفوظة بمكتبة الإذاعة الصوتية ذات النتيجة، حيث أن جل المادة التراثية تم تسجيلها من مجموعات تنتمي ثقافياً وعرقياً لشمال ووسط السودان، والنذر اليسير من بعض مناطق غرب السودان. وهناك ضعف بيِّن لتسجيل ثقافات مناطق أخرى مثل شرق السودان وجنوبه وجنوب النيل الأزرق وجبال النوبة. وهذه المناطق هي التي شهدت صراعات مسلحة في الآونة الأخيرة، ما أدى لانفصال الجنوب عن السودان، وظلت مناطق مثل جنوب النيل الأزرق ودارفور وجنوب كرفان بؤراً للنزعات والحروب حتى هذه اللحظة.

ولا تنحصر مسالب الإذاعة القومية في عيوب برمجة أجناس الموروثات السودانية بغرض توظيفها لخدمة قضايا الوحدة الوطنية، بل يمتد الأمر، من حيث

(٣٤) انظر: أحمد عبد الرحيم نصر (١٩٨٦م): "البحث عن الذات: إتجاهان في الدراسات الفولكلورية السودانية"، المأثورات الشعبية، العدد الثاني، الدوحة، مركز التراث الشعبي لدول الخليج العربي.

(٣٥) انظر: العجب أحمد الطريفي (١٩٨٨م): دراسات في الوحدة الوطنية في السودان، الخرطوم، مجلس إدارة الحكم الاقليمي.

التخطيط، لموضوع اختيار اللغة الأنسب لبث هذه البرامج وغيرها لمصلحة إيصال الرسالة الإذاعية بكفاءة للمستمع في كافة مناطق السودان المختلفة.

يقول خبراء اللغة إن اللهجة العامية السودانية لهجة عربية نموذجية بالنسبة لمتحدثي اللهجات والأنواع اللغوية العربية الأخرى، يستخدمها السودانيون في التواصل فيما بينهم، وعلى عمادها تطور ما يعرف بلهجة المثقفين، وهي نمط وسط بين العربية الفصحى وعامياتها تستخدمها أجهزة الإعلام المسموعة خاصة. بيد أن جل المستمعين لهذه الأجهزة الإعلامية ليسوا من المثقفين، بل يمثلون عامة الشعب، والذين هم أكثر الناس حاجة للتوعية والتعلم والاستفادة من مواد البث الإذاعي كوسيلة سمعية للتواصل مع الآخر.

إن الرأي بتبني العامية السودانية، وليست عامية المثقفين، كلغة قومية للسودان والتخطيط لها بالسبل العلمية المتعارف عليها بما يمكّنها من القيام بهذا الدور بفعالية، مع ضمان الحفاظ على حيوية اللغات المحلية بموروثاتها الثقافية وعلى الأدوار التواصلية للبعض منها على مستوى الأقاليم التي تسود فيها، لهو واحد من المساهمات البارزة في هذه القضية التي أولاها معهد الدراسات الأفريقية والآسيوية جل اهتمامه منذ تأسيسه في ستينيات القرن الماضي وحتى يومنا هذا.

٨- البرنامج التراثي الإذاعي النموذجي

لقد ركزت البرامج الإذاعية في السابق على المضامين الإعلامية أكثر من تركيزها على كيفية التعامل مع المتلقي المستهدف. بمعنى آخر، إن التأثير على المتلقي يأخذ صفة الاحتمالية، وليس أكيد الفعل. ولهذا يمكننا طرح انموذج لمجلة إذاعية تراثية تحتوي على أقسام الموروث كافة، ومُعبّر عنها باللهجات العربية السودانية السائدة، باعتبار

أن اللغة العربية هي اللغة المشتركة بين كل المجموعات السودانية، ومن ثم فهي عنصر توحد وتجانس، على أن تتنوع الموضوعات في كل مرة.

إن الرؤية العامة حول هذا البرنامج المقترح تبنى على أهمية خلق صلات وجدانية بين مختلف الثقافات السودانية، إلا أن كل عمل ذي صلة بتطبيقات الموروث الثقافي يشتمل على الكثير مما يجب الاهتمام به، خاصة ونحن نتناول علاقة الموروث بقضية التعدد والوحدة الوطنية. ولهذا اقترحنا أن ينهض البرنامج على قاعدة صلبة ويهتم بالتطبيق العملي، ولا يكتفي بالأمور النظرية فقط. ويتطلب هذا الأمر أن يوكل شأن تقديمه لأشخاص مختصين في مجال التراث ولهم القدرة على الإبداع عبر الحكاية الشعبية، أو المثل، أو الشعر، أو النكتة، أو الأغنية ... أي عبر مختلف مكوِّنات الموروث وأجناسه، بأسلوب سلس ومشوِّق.

وكذلك تقترح المجلة أن يتم توظيف الموسيقى والمؤثرات الصوتية المأخوذة من ذات المادة الثقافية المراد بثها، لتكون كما الحبل السري للربط بين تلك المادة والأسلوب المتبع عبر الرؤية الإخراجية. فبذلك تكون للبرنامج استمرارية شيقة، نسبة لتعدد فقراته وتنوعها، والتي تهدف إلى نشر وتعريف المتلقي بثقافات مجموعات سودانية متنوعة. فمثل هذا الإعداد يجعل للبرنامج حضوراً دائماً طيلة فترة بثه الإذاعي، ويجد فيه كل مستمع نفسه والآخرين، ما يساعد على خلق شعور وجداني مشترك بين أبناء الوطن. ولا بد أن يتكامل هذا الجهد مع تفعيل دور الإذاعات الإقليمية في أداء رسالتها المحلية والمتمثلة في تعظيم وبث ثقافات المجموعات المعنية والاهتمام باللغات التي تنطق بها.

٩- خاتمة

إن هذه المعالجة الإذاعية المقترحة، والتي تهدف لتوظيف الفولكلور في خدمة قضية الوحدة الوطنية، يمكن أن تكون حدثاً إبلاغياً يلتحم فيه الشكل بالمضمون إلتحاماً عضوياً لا فصام فيه، حيث يتم إخرجها وبثها بصورة جذابة وممتعة للمتلقي. وبذلك يمكن تخطي محدودية البرامج السابقة التي جعلت من الموروث مادة لها ومعالجة جوانب القصور فيها. فهذه المعالجة ذات الفقرات المتعددة، والتي تتناول مادتها من مختلف الثقافات السودانية دون انحياز أو تعالٍ، تترتب عليها إيجابيات تتمثل في خلق عاطفة قومية موحدة.

إن تناول كل الأجناس الفولكلورية في ذات الحلقة، رغم استقلالية نشأتها لدى كل مجموعة على حدة، إضافة إلى الرؤية الإخراجية والتي تجعل المجلة برنامجاً إذاعياً مرغوباً من قبل المتلقي، تساعد المستمع على أن يجد في البرنامج ذاته والآخرين، وتنمِّي بدواخله الشعور بالتوازن النفسي وتحقيق الذات الثقافية والإحساس بما هو مشترك بينه ومن يشاركونه العيش في الوطن الواحد.